رفائيـــل [1]

للدكتور عبد الوهاب عزام

الساعة بعد نصف الليل أتممت قصة رفائيل قراءة . وكنت بدأت قراءتها منذ زمان بعيد فتطاول الأمد . وتثاقلت النفس . تثاقل النعم والحزن على قلبي جوليا ورفائيل .

ما حسبت قط أن الحزن الذي شربته جرعات . وأشربه قلبي وأحسه حيناً بعد حين يبلغ في هذا المبلغ . بلى : أذكر أني في إحدى الليالي وقفت القراءة اشفاقاً على نفسي حينما بلغت برفائيل وجوليا حديقة منسو . وحم هنالك الوداع ! أذكر أني حينئذ وضعت الكتاب على حافة السرير . وألقيت على الوسادة رأساً ينوء بالهموم . فماج في الليل وطار الفكر في أرجاء السموات . وقذف القلب بأحزانه وزفرات . ودارت النفس في أعماق من الظلام والفكر ما لها من قرار . ولكني ما حسبت قط أن الحزن آخذ بي الى هذه الغاية . وأذكر في هذه القصة مواقف موجعة . ومشاهد مروعة . أذكر جوليا ورفائيل . وهما في نفسيهما مأساتان أحكم الله تأليفهما . وبعث بهما الى الأرض في صفحات الحادثات أو في صفحات لامرتين ليقرآ على مر الأيام . . وأذكر البحيرة بحيرة سرجيه . يوم جمع القضاء بين حبيبين لا يعرف أحدهما الآخر . فكأنهما التقيا على موعد بعد أن برح بهما الشوق . وأمضهما الانتظار . ويوم حان فراق « اكس » . ورحلت جوليا الى باريس فنعاها رفائيل برقيا عن كتب وهي لا تدري . ويجدها كلما عرض لها ما تنكره : حتى أبلغها دارها ثم رجع . وأذكر تلاقيهما في باريس يجتمعان على هوى عذري . وفرح هو أشد ضروب العذاب . في ملتقى حبيبين هو أشبه بمأتم تهيأ فيه للقضاء الذي ليس منه مفر . ويوم يبيع رفائيل لؤلؤة أمه وهو يريد بذمه ليستطيع الاقامة على مقربة من جوليا . ويوم ذهب الى أمه فأخبرها أن الطبيب أشار عليه بالمسير الى سافوا . فلا تجد أمه بدا أن تقسو على أعز صديق وأنفس ذخيرة وأجل ذكرى : الشجرات اللاتي يظللن المنزل واللاتي حنون على هذه الأسرة دهراً طويلا ! فكان في ظلالهن مسارح اللهو ومدارج الصبا لرفائيل وأمه وأبيه . فانظر كيف تضطرها الأقدار . أن تسلط الفأس على هذه الأشجار !

كل أولئك أذكره . وانها لذكرى مضنية . ولكن ما حسبت قط أن يبلغ الحزن في هذا المدى !

الساعة بعد نصف الليل أخذت الكتاب أقرأ الوريقات القليلة الباقية ونفسي تضطرب فزعاً مما سيلقاها في ثنايا هذه الصفحات التي بدت كأنها صحف الغيب تنفح عن المقادير واحداً بعد آخر .

حتى اذا بلغ رفائيل الكوخ الذي حل اليه جوليا . فلم ير الا ظلاماً ولم يسمع بين الظلام نأمة حي . فدار يقبل الجدار والجدار . حتى بلغ المكان الذي ركع فيه بين يدي جوليا وهي في غشيتها يوم البحيرة . ثم يتحامل الى جدول يأكل على حافته ما يمسك دماءه . على ذكرى قاتلة . وحرقة يعيا بها الوصف .

قرأت حتى جاء الملاح الى رفائيل برسالة من صديقه لويس يبلغه رسائل جوليا . فعاد رفائيل الى حجرته يسير الى مهلكه على شعاع ذاو من أشعة الشمس الغاربة . يفض رفائيل الغلاف عن رسالة لويس ثم عن رسائل باريس فاذا كتاب معلم بالسواد . واذا خط « ألن » لا خط جوليا . يقرأ سطوراً سوداء تنعى اليه جوليا . ويتظر بصره الزائغ فاذا خط جوليا نفسها — أجل خط جوليا نفسها — ولكنها كلمة أرادت قلبها عليها وهي في غمرات الموت تعزي رفائيل عن نفسها . فلله ما أفظعها تعزية ! تركت رفائيل يخر مغشياً عليه . وخررت على فراشي فبكيت ثم بكيت ثم لج بي البكاء .

وحاولت جهدي أن أسكن جأشي أو أكفكف دمعي . ما تعمدت البكاء ولا رجوته . ولا خلت أن أنتهي اليه . ولكنه كان وحياً من الحزن والدمع لا أعرف من أين هبط . بل ثورة من هموم راكدة . وأحزان كامنة . كانت قصة رفائيل لها كقدحة الزناد . أو كضربة مسحاة على نبع يدافع الثرى لينفجر .

كذلك انتهت بي قصة رفائيل . وكذلك أبكى لامرتين بعد مائة سنة شاعراً مجهولا يشبهه لامرتين طبعاً مكتئباً . وقلباً منقبضا . ونفساً ملتهبة . شاعرا قد بلغ به الاعتداد بنفسه أن يظن أن ليس بينه وبين أن يكون لامرتينا آخر الا « التأملات (١) » .

كذلك فعلت بي قصة رفائيل . فلما أفقت لم أدر أأساء الى لامرتين أم أحسن . ولم أدر أأحمد صديقي الزيات أم ألحاه ؟

عبد الوهاب عزام

---

(١) كتبت بالقدره يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٣٤٦ — ٢ اغسطس سنة ١٩٢٧ بعد قراءة قصة رفائيل التي ألفها لامرتين الشاعر الفرنسي وترجمها الاستاذ أحمد حسن الزيات

(١) Les Méditations التي نشره لامرتين سنة ١٨٢٠ م فكان فتحا في الادب الفرنسي